

ماكيا فيلي وابن خلدون مقارنة تاريخية فكرية

✍ الأستاذ الدكتور : ناصر الدين سعيدوني

جامعة الكويت



إن الاطلاع على أفكار ماكيا فيلي(*) التي احتل بفضلها مكانة مميزة في عالم الفكر السياسي وفي مجال التحليل التاريخي، تفرض علينا مقارنتها بأفكار المفكر والمؤرخ العربي عبد الرحمان بن خلدون، رغم التباين في الفترة الزمنية والاختلاف في القيم الحضارية لكليهما. فالدارس لفكر الرجلين والباحث في مساهمتهما في تطور الفكر التاريخي يلاحظ أوجه تشابه كثيرة ما بين ماكيا فيلي (1468—1527) ابن خلدون (1332-1406م) تدفع المرء إلى التساؤل عن مدى اطلاع الأول على آراء الثاني. وحتى وإن كان من المؤكد على ضوء الدراسات الحديثة، أن ماكيا فيلي لم يطلع على آراء ابن خلدون، فإن مجال المقارنة يظل مطروحا بين الرجلين بل يفرض نفسه على قارئ التراث الإنساني فيما يتعلق بالتاريخ وعلم السياسة والاجتماع. إن القارئ المتأنى لمقدمة ابن خلدون (1) والمتتبع لما كتبه ماكيا فيلي في كتابيه المطارحات والأمير (2)، يلاحظ توارد الأفكار وتشابه المواقف والأحكام بين الرجلين، حتى أن جومبلاوتر لم يتردد في القول بأن فضل السبق فيما يتعلق بالنصائح التي قدمها ماكيا فيلي في كتاباته يرجع إلى ابن خلدون الذي تقدم عنه بقرن وإن لم يكن قد أخذ تلك الأفكار مباشرة منه (3).

على أن الرجلين برا تقلبات السياسة وطبيعة السلطة، وتأثرا بالانقسام السياسي والتدهور الاجتماعي وتنافس الحكام ومؤامرات البلاطات.

كل ذلك جعلهما يسجلان آرائهما الشخصية وقيمان وضع مجتمعهما بنظرة واقعية نفعية مجردة من الاعتبار الأدبية والميول الذاتية، تقوم على مبدأ العلية والسببية وتستند إلى المصلحة وقوانين الكون وسن الطبيعة، وتستند في فهمها للأحداث وتقييمها

إن أوجه التشابه وتمائل المواقف والأفكار بين ماكيا فيلي وابن خلدون يعود إلى تأثيرهما بمكونات ذاتية وظروف محلية وتجارب شخصية متقاربة على حد كبير، جعلت مواقفهما متشابهة من قضايا التاريخ وواقع المجتمع ومسائل السلطة، فقد عبر كلاهما بصدق عن المزاج والسلوك الذي طبع عصرهما. كما أن كليهما اكتسب في إطار مجتمعه ومعطيات عصره تجربة غنية في الحياة جمع فيها عمق الثقافة بممارسة الوظائف والقيام بالمهام والاحتكاك بالحكام، فضلا

للأشياء على نظرة شاملة نابعة عن تحليل كل ذلك جعل ماكيافيلي وقبله ابن خلدون يعرضان ملاحظتهما ويسجلان آراءهما بحياد وتجرد من خلال تصور واقعي عملي لطبيعة الأفراد ويتماشى وسلوك الحكام وواقع المجتمع في إطار تطبيق منهج تاريخي أو إقرار حتمية اجتماعية ومعطيات سياسية، وليس في سياق مفهوم أخلاقي أو تصور مثالي كما اعتاد كتاب السياسة والأخلاق في العالم الإسلامي صياغته في كتب سير الملوك وآداب الحكم القرابي والماوردي والطوطشي أو كما عملت الكنيسة الرومانية جاهدة على فرض مفهومها لطبيعة السلطة وواجبات الحاكم المسيحي كما يتضح ذلك جليا في كتاب رجل البلاط لبلدزار كاستليون ت 1529م.

إن حلقة الوصل بين ابن خلدون وماكيافيلي تتمثل في تنوع ثقافتهما وفي غنى تجربتهما وفي احتكاكهما بالحكام وتعرفهما على نوازع وميول العامة في مجتمعيهما. فابن خلدون أغنى ثقافته وشحذ تجربته بفضل تنقله بين بلاطات حكام تونس وبجاية وتلمسان وفاس وغرناطة وانتقاله بين بوادي ومدن المغرب واضطراره للانقطاع للتفكير في خلواته بقلعة بني سلامة بالمغرب الأوسط. بينما ماكيافيلي أكمل ثقافته وبلور تجربته بتوليه الوظائف الإدارية والمهام الدبلوماسية، قبل أن تصبح قناعات لديه بفعل تحول الحكام عنه ونقمتهم عليه.

وفي هذا الإطار حدد كل من ابن خلدون وماكيافيلي موقفهما من قضايا التاريخ وشؤون الحكم وأوضاع الناس وعلاقة العامة بالحكام، فأنيا بنفسيهما عن دور الواعظ والرشد واكتفيا بإبداء الرأي وتقديم النصيحة وعرض المشورة ولم يسمحا لنفسيهما أن

وتركيب وتعميم لأبعاد الظواهر البشرية. يقوم بدور كتاب البلاط ومستشاري الملوك والأمراء، كما لم يرضيا أن يجاريا قناعات العامة وميول الأدباء. إن أفكار وتصورات وآراء كل من ابن خلدون وماكيافيلي هي عطاء بيئتها ونتاج عصريهما وعصارة حضارتيهما، فابن خلدون فهم بفعل التجربة وعن طريق الملاحظة أن الخشونة من الفضائل والترف من مظاهر الانحلال والعصية من دواعي اكتساب القوة والفوز بالسلطة، وأن التطور التاريخي من خلال ظاهرة الدولة أو الملك يخضع للشروط البشرية وظروف البيئة بحيث يمر عبر مراحل متعاقبة تبدأ بالعصية وتبلغ أوجها من مرحلة "الملك العضود" لتنتهي بالانحلال عندما يشيع الترف وتندم القيم وتزول الضوابط التي يقوم عليها نظام الدولة وممارسة السلطة⁷. أما ماكيافيلي فقد رأى في مظاهر السلوك المعتادة ما قد يتسبب في هلاك الحاكم وضياح الممالك هو الانغماس في الملدات والاعتماد على المرتزقة، وقد خلص إلى التسليم بدورة أخلاقية في حياة الشعوب، فانطلاقا من تناب وانتظام الظواهر البشرية المرتبطة بالسلوك البشري تأكد لديه أن الفضيلة أو المنفعة المحسوسة التي كان ينشدها من أجل تغيير أوضاع إيطاليا في عصره، تنتج في حالة توفرها فترة سلم يترتب عنها استرخاء المجتمع وميله إلى الدعة وركونه إلى الراحة، وهذا ما يؤدي بدوره إلى الفوضى التي تتسبب لا محالة في الخراب الذي سوف يعقبه حتما بتحدد وتيقظ، وهكذا يسود النظام في اعقاب الفوضى وتنتشر الفضيلة في كنف النظام، فعهد النمو الأدبي يأتي دائما في اعقاب التفوق الحربي، كما أن المحاربين العظام يظهرون عادة

ومن تدمير بسبب نزاعات الحكام وطغيان
البدواة وانكماش الزراعة وتراجع حياة
الاستقرار، فانغلق الفكر ليجتر التراث، وغرق
الناس في التصوف الذي يعدهم عن مشاكل
الحياة ومتطلباتها، وذهب بريق حواضر وبيئات
الثقافة بالمغرب، وانقطع معين التجديد لدى
الفقهاء الذين استبدوا بالمعرفة الإسلامية
وعقموها بتزكيتهم غلق باب الاجتهاد ومحاربة
سبل الإبداع والتجديد، فلم يجد ابن خلدون ما
يعزي به نفسه وهو يؤسس لنظرية العصبية
القائمة على فكرة التعاقب الدوري للدول
ببلاد المغرب، سوى التمعن في الآلة الكريمة
: "وتلك الأيام نداؤها بين الناس".

بينما كان ماكيافلي الذي أتى بعد ابن
خلدون بعد قرن وربع يتفاعل مع مجتمع
فلورنسا الذي احتضن عطاء النهضة الأوروبية
بكل تناقضاتها وإيجابياتها، فكان موقفه في
مسرحة التاريخ أشبه شيء بشاب يافع
يستيقظ مع نسيمات الصباح المنعشة عند بزوغ
شمس الحضارة في سماء أوربا بعد ليل القرون
الوسطى المظلم، فلم يكن له الوقت الكافي
للتأمل كما فعل ابن خلدون في قلعة بني
سلامة، وإنما كان كله حيوية وانفعالا يتقد
حماسة للمشاركة في صنع الأحداث والمساهمة
في مسح ما تبقى عالقا من غشاوة على أعين
الأوربيين، فرأى أن الفائدة ليست في الطرق
والوسائل وإنما في الغايات والمكاسب، فجعل
من بطله "الأمير" حاجة اجتماعية وضرورة
سياسية اقتضاها مجتمعه وتطلبها عصره، فلم
يخل بتقديم الملاحظات التي استقفاها من
التاريخ حتى ينتفع بها الأمير لنفسه ولمصلحة
رعيته، فرأى أن سلوك هذا الأمير الاجتماعي
رغم كونه شيئا خاصا به وأمرا يتعلق
بشخصيته إلا أنه يصبح بفعل ظروف العصر

قبل الفلافة والمفكرين. إن هذه النظرية
الديناميكية للتطور التاريخي والتي تقوم عند
ابن خلدون على تفاعل عامل العصبية، وتستند
عندما كيافلي الواقع، إلى مبدأ تعاقب فترتي
الفوضى والنظام، تعود في الأساس إلى
ملاحظتهما الدقيقة لأحداث التاريخ وطبائع
البشر، هذه الملاحظة التي جعلتهما لا يريان
الحياة بغير لون وهذا ما جعلهما يسلمان
بالواقع وإن كان يأملان في تغييره، لأنه في
نظرهما يتماشى وما يقتضيه العقل وما تقره
التجربة التي تقوم عليها الحياة البشرية.

أما جوانب الاختلاف بين الرجلين فهي
نابعة من الميول والأفكار الخاصة بكل واحد
منهما وناتجة أساسا من اختلاف القيم
الحضارية التي ينتميان إليها وتباين ظروف
العصر وشروط البيئة لكل واحد منهما .
فأوضاع المغرب العربي والظروف الاجتماعية
والسياسية وحتى الاقتصادية السائدة به
جعلت ابن خلدون يغلب عليه التشاؤم والميل
والانسحاب من الحياة لينتهي به إلى المطاف
إلى ترك بلاد المغرب العربي ليعيش حياة
متقلبة مضطربة بالشرق العربي، فجاءت أفكاره
التي اكتملت في بلاد المغرب في شكل تنظير
لقضايا التاريخ وشؤون المجتمع وطبيعة
الحياة، وبذلك ظلت مجرد أفكار شخصية لم
يتأثر بها عاصروه من الأدباء والمشتغلين
بالثقافة، ولم تعرف التطبيق حتى فيما كتبه هو
نفسه في كتاب العبر، وهذا ما يجعل منه في
مسرحة التاريخ شيئا هراما يقف على عتبة
الحضارة العربية الإسلامية وقت الغسق ليشهد
غروب تلك الحضارة في القرن الثامن الهجري
الرابع عشر ميلادي، بتأملها بحكمة، بعد أن
كاد يتوقف عطاؤها ويجف ماء الحياة منها
بفعل ما لحق بها من أضرار من جراء العصبية

مقارنة تاريخية بين ماكيافيلي و ابن خلدون
عاملا مؤثرا في المجتمع ومتحكما في سلوك الدولة، وهذا ما جعل ماكيافيلي يعرض أفكاره سواء في كتاب الأمير أو المطارحات في شكل مقارنة تاريخية بين ماكيافيلي و ابن خلدون استنتاجات منطقية امتزج فيها التاريخ بالتقاليد المتوارثة والتعاليم المدرسية السائدة بالفلسفة وعلم السياسة بقضايا المجتمع ، فلم يأبه ولم يلتفت إلى الناس ليأخذ مواقفهم فيما يصل إليه من استنتاجات ، بل لم يتردد في مصارحتهم بشيء يسلمون بصحته في دواخلهم ولكنهم يرفضونه في واقعهم، بل يلعنون من يتجرأ على عرضه ويعتبرونه - حسب قول لسنر (Lesner) - "مرادفا للشيطان نفسه"، وهذا ما جعل رسالة الأمير بمثابة إنجيل الشيطان حسب قول رمزي موير.

لقد عبر ماكيافيلي عن روح عصره الثائرة وعكس تفاعلات بيئته المتبقطة، فيما اكتفى ابن خلدون بتسجيل ملاحظاته في مقدمته ومحتفظا بأرائه لنفسه، رغم كون آرائه تعبير عن مفاهيم مجتمعية أكثر تحررا إن لم تكن أبعد عن مفهوم الأخلاق السائدة وتصور المعتقدات والأديان من آراء ونظرة وموقفا ماكيافيلي ، لكن ابن خلدون مز بسلام ولم يتعرض بسببها إلى تشهير المجتمع ونقمة الحكام وغضب الفقهاء لأن المجتمع الواعي المهيب للتفاعل معها لم يكن موجودا في عصره، ولأن أسلوبه ديبلوماسي وتعبيده اللغوي الجزل والتجائه إلى الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وترديد عبارات دينية تبعث على الثقة وتدعو إلى الاطمئنان من قبيل الله أعلم وهو الهادي إلى الصواب والتوفيق، أخفت الدلالات التي تحملها أفكاره والمفاهيم التي تستند إليها أطروحاته، فظلت مساهمته وكأنها القطعة الخالصة من الذهب المغطاة التراب والمدفونة

تحت الأرض بعيدا عن أيدي الباحثين عن المال والساعين إلى الثروة، فلم تصبح موضوع اهتمام ودراسة في العالم العربي الإسلامي إلا في فترة متأخرة يعود الفضل فيها إلى إعجاب المؤرخ (1716)، بفكر ابن خلدون وسعي المستشرق الفرنسي سلفستر دو ساسي للتعريف بمقدمته عندما نشر مقتطفات منها (1806)، وهذا عكس ما عرفه مساهمة ماكيافيلي في تطور المفهوم التاريخية ونظراته إلى السياسة والحكم، فقد ظل حيا في مجتمعه مؤثرا في ثقافة عصره، فكان بذلك منطلقا لتأصيل علم السياسة وأساسا لتطور النظرة التاريخية لاستقراء الأحداث واستخلاص الأحكام والمفاهيم منها .

هوامش المقال :

(*)-يقول ميكيافيلي Nicola Machiavelli (1469-1527) نشأ في فلورنسا واندمج في الحياة العامة ببلده ،وتولى عدة وظائف منها سفيرا لدى فرنسا وقائدا للحرس الأهلي ، قبل أن يتعرض لغضب أسرة مديشي الحاكمة بفلورنسا (1512) فاعتزل الحياة العامة وانزوى في منزله الريفي للتأمل وقراءة التاريخ الروماني ل"تيت ليف" والتعليق عليه، فانجز عدة تأليف في التاريخ والسياسة وفن الحرب ، فجاءت معبرة عن نظراته الواقعية النقدية المتفحصة والقائمة على تحليل الأحداث واستخلاص النتائج، والتي ضمنها كتابيه المطارحات (1518-1512) ، فجاءت ملاحظاته تعبيرا لأرائه فيما يتعلق بممارسة الحكم ومعالجة القضايا السياسية والأمور العسكرية . وللتعرف أكثر على آراء ماكيافيلي راجع، ناصر الدين سعيدوني : رواد المدرسة التاريخية الأوروبية في القرن السادس عشر "فالا-غيشياريديني -

(2) y.LaCOSTE.,IBN
KHALDn,naissance de l'histoire
passe du tiers-monde,paris1980

(3) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد
الواحد واقي، ط3، القاهرة، نهضة مصر، د.ت.

ماكافيلي " مجلة : انسانيات، كلية العلوم الانسانية
والاجتماعية، العدد الثاني، 2002.

1- لأخذ فكرة موجزة عن حياة ابن خلدون
(1406-1332هـ / 808-732) راجع : ناصر
الدين سعيديوني: من التراث التاريخي والجغرافي
الاسلامي، 1999، ص، ص. 212-223. وكذلك